# الاستشراق والنقد الذاتي في ضوء كتاب(*)

***An account of the Rise and Progress of Mahometanism with the life Of Mahomet. and A Vindication of him and his Religion From the Columines of the Christians***

## القسم الأول

### توطئة

لا ريب أن مؤسسة الاستشراق قد نشأت في سياق موقف التحدي الذي وقفه الغرب إزاء الإسلام، ثم أصبح مسؤولا- فيما بعد- عن تشكيل موقف الغرب من الإسلام والمسلمين. إنه ظاهرة معقدة تختلط فيها الإيجابيات بالسلبيات والحسنات بالسيئات.

ولا ريب أن الاستشراق قد حقق كثيرًا من الأغراض التي قام من أجلها، ولا ريب كذلك فإن الاستشراق (بمعنى أن يتخصص آلاف من أبناء الحضارة الغربية في دراسة الإسلام وحضارته من جميع جوانبها، كلياتها وتفاصيلها، فكرها وواقعها) يعد ظاهرة فريدة في تاريخ الحضارات والثقافات الإنسانية، فنحن لا نعرف أن ذلك قد حدث بين حضارتين بنفس الكثافة والتركيز وامتداد الفترة التي استغرقها.

يشرح ألبرت حوراني الأستاذ في Oxford في كتابه:

* Ialam in European Thought. Cambridge. 1991.

(1) (*) نشر هذا البحث سنة 2000م في الولايات المتحدة الأمريكية في العدد (60) من مجلة (إسلامية المعرفة) التي يصدرها (المعهد العالمي للفكر الإسلامي)

راجع كتابنا (الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية) نشر دار الفكر العربي، القاهرة 1993.



obeikandl.com

«إن الإسلام قد شكل تحديًا هائلًا للغرب منذ أيامه الأولى»... وقد شمل هذا التحدي الجوانب الدينية والسياسية والحضارية، فصمم الغرب على الاستجابة لهذا التحدي، وفي هذا السياق المحموم نشأ الاستشراق؛ أي نشأ في إطار استجابة الغرب لما تصوره تحديًا إسلاميًّا شاملًا، تلك الاستجابة الغربية التي اعتمدت (حتمية الصراع) مع الإسلام استراتيجية عامة ومطلقة.

لقد كان الغرض الأساسي للاستشراق- منذ البداية- تحصين المواطن الغربي ضد الإسلام، وذلك عن طريق نسج صورة سوداء بشعة للإسلام، تجعل المواطن الغربي خائفًا منه كارهًا له؛ أي عن طريق تسميم عقله ووجدانه تجاه الإسلام والمسلمين.

وقع ذلك منذ البدء، ومرورًا ببطرس المبجل Venerable Peter وترجمته لمعاني القرآن الكريم[1]، ورهبان دير كلوني[2] Cluny في جنوب فرنسا (وقد كان بطرس نفسه رئيسًا له ثم ترأسه من بعد ريموند لول R. Lull) إلى قرار مجمع فيينا الكنسي[3] 1312م بإنشاء خمسة أقسام علمية أكاديمية لتدريس اللغة العربية- رسميًّا- في جامعات الغرب الكبرى في ذلك الوقت (القرن الرابع عشر أي منذ سبعة قرون) بما فيها جامعة الفاتيكان نفسها؛ أي أن الاستشراق قد نشأ رسميًا بقرار من مجمع الكنيسة لأغراض حمائية وتبشيرية، ثم التقت هذه الأغراض في القرن التاسع عشر مع الإستراتيجيات والخطط الاستعمارية (الكولونيالية) الغربية لإخضاع العالم الإسلامي لهيمنة الغرب.

وفي سبيل ذلك سخّر الغرب آلاف الباحثين لدراسة الشرق Orient الإسلامي العربي دراسة مستوعبة شاملة، وقد تمخض هذا الجهد الهائل المتواصل عن آلاف البحوث والدراسات والكتب والمؤتمرات والمجلات التي استطاعت

(1) peter the venerable and Islam. Princeton. 1964.

(2) انظر رسالة راهب دير كلوني إلى المسلمين وجواب القاضي الباجي عليها، بتحقيقنا، نشر دار الجيل، بيروت 1991م.

(3) F. Dovemilk. the Ecumenical Councils. N.Y. 1961.

بنجاح كبير أن توجه العقل الغربي، وأن تشكل الشعور والمزاج العام في الغرب تجاه الإسلام والمسلمين. وقد تجلى ذلك في توتر العلاقات بين الغرب والشرق الإسلامي العربي في كل مراحلها التاريخية والمعاصرة. لقد نفذ المستشرقون بنجاح- يغبطون عليه- أكبر عملية غسل مخ أو تزييف وعي لمواطنيهم عرفها التاريخ الإنساني[1]، وإن رمت الدقة قلت: إنها عملية إكراه ثقافي أو إخضاع فكري للمواطن الغربي.

وقد اقتضى ذلك اقتحام مجالات بحثية وعلمية مهمة مثل: تحقيق المخطوطات الإسلامية وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ودراستها ونشرها، ومثل جمع المخطوطات وفهرستها وحفظها، ومثل تأليف المعجمات اللغوية الحديثة، وإنجاز دائرة للمعارف الإسلامية، ومعجم مفهرس لألفاظ الحديث النبوي الشريف، ومعجم مفهرس لموضوعات القرآن الكريم، ومثل اصطناع مناهج بحثية نقدية في دراسة التراث الإسلامي، ومثل الإشراف على الأطروحات الأكاديمية التي تتعلق بالثقافة الإسلامية، وكذلك تدريس الفكر الإسلامي في الجامعات العربية والإسلامية، ومثل عقد سلسلة من المؤتمرات ونشر عدد من المجلات الاستشراقية... إلخ.

تلك باختصار رحلة الاستشراق منذ نشأته الموغلة في الزمان حتى اليوم الذي تسلمت فيه آلة الإعلام الغربية «الجهنمية» نتائج تلك البحوث لتوظفها بصورة عصرية تعتمد فيها على أحدث تقنيات الاتصال والمعلوماتية المتطورة.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن كثيرًا من كبار المستشرقين - بعد الحرب العالمية الثانية - وتوسد الولايات المتحدة الأمريكية سدة الزعامة في العالم - قد يمموا وجوههم

(1) انظر بحثنا الذي ألقيناه في الندوة الدولية عن مصادر المعلومات عن العالم الإسلامي (الرياض نوفمبر 1999) بعنوان (كتابات علماء مقارنة الأديان الغربيين كمصدر معلومات عن الإسلام والمسلمين).

شطر أمريكا، وبدأوا هنالك مرحلة جديدة.. تقارب فيها المستشرقون وخبراء السياسة والإستراتيجية ورجال الإعلام والاجتماع والأنثربولوجيا، وتخفّف المستشرقون من الدراسات الأكاديمية للإسلام، ومن تحقيق نصوصه وترجماتها دراسة نظرية، وانشغلوا في نوع من الدراسات الميدانية، أو ما أطلق عليه في أمريكا: Area studies، فجاء المستشرقون (وشركاؤهم من خبراء الإعلام والإستراتيجية والأنثربولوجيا والنفط والمخابرات) لدراسة الواقع الإسلامي الراهن، والإحاطة بتفاصيله ميدانيًّا لمساعدة صانعي القرار – في الغرب – في رسم الخطط الكفيلة بتحقيق المصالح الوطنية الحيوية لهم في العالم العربي الإسلامي بأقصى عائد وأقل تكلفة.

ذلكم هو التيار العام للاستشراق الرسمي منذ بداياته الأولى حتى اليوم. ومما يذكر أن معظم المستشرقين قد بقوا أوفياء لأغراض المؤسسة الاستشراقية في مجملها، وإن خالفها بعضهم من ذوي الضمائر الحية.

**1 – نقد الذات:**

خضعت الدراسات الاستشراقية لعملية مراجعة وتقويم أو نقد من داخل المؤسسة الاستشراقية ذاتها، وهذا ما نطلق عليه (نقد الأنا) أو النقد الذاتي Self Criticism – فالمستشرقون– في واقع الأمر– ليسوا سواءً، فمنهم الراديكاليون، والمعتدلون نسبيًّا، والمنصفون.

ولقد انتقد بعض المستشرقين أنفسَهم، مثل:

M. watt; J.Fueck ، Arberry ; Annemarie Schimmel;M.Marcus;Van Koningsfild; Gorafisky; L.Massignion; Th. Arnold; N.Daniel; Southern; Stephan Wild; R.parret;Juan Goytisolo.....etc.

**انتقد هؤلاء مؤسسة الاستشراق في جوانب متعددة منها:**

أ – الغرض الأساسي للاستشراق وهو محاربة الإسلام وانتزاع كل أصالة منه وتصويره على أنه هرطقة مسيحية، أو تلفيق من الديانات والثقافات السابقة. يحدد

المستشرق الألماني المعاصر Rudi paret هدف الاستشراق- إبَّان النشأة في وضوح وجرأة، فيقول «كان الهدف من هذه الجهود- الاستشراقية - في ذلك العصر، وفي القرون التالية هو التبشير؛ أي: «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي»[1]. ولقد وظف المستشرقون بكفاءة كتابات يوحنا الدمشقي (749 - 675)م الذي يعد أول لاهوتي مسيحي يسجل عن الإسلام أنه (هرطقة) مسيحية، وأنه ديانة زائفة، وأن (الله) ليس هو الرب أو السيد كما يعتقد فيه النصارى، وأن الإسلام قد لفقه محمد بدافع من الطموح الشخصي، وأنه قد نشره بحد السيف[2]...إلخ.

ويذكر William Maur مدير جامعة أدنبرة الذي شهد المناظرة الكبرى بين الدكتور K. pfinder والشيخ رحمت الله الهندي في كتابيه:

Life of Muhammad «Muhammadan Controversy»»

أن الإسلام فيه حق كثير، لكنه مأخوذ من الأديان السابقة الموحى بها[3].

ب - المناهج النقدية المتعسفة في التعامل مع القرآن الكريم والسنة المطهرة.

يقول (يوهان فوك) في كتاب له بعنوان:

The originality of the Arabian Prophet. oxford. 1981

فيما ينقله عنه الفرنسي M. Rodinson: «على كل حال لقد أصبح النظر في عدم أصالة الإسلام واعتماده على الأديان السابقة موضة (Vougue) بين عموم المستشرقين»[4] ويقول:« لقد فقدت دراسات المستشرقين الكبار صلتها بأفكار القرآن المتميزة والرصينة، واكتفت باجترار البحث في تبعية كل مقطع قرآني وإرجاعه إلى مصدره في الأديان السابقة، كلما كان ذلك ممكنًا، بهدف تمزيق

(1) رودي بارت: الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، المستشرقون الألمان من تيودر نولدكه، ترجمة د. مصطفى ماهر، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967م، ص9.

(2) D J.shohas، John of Damascus on Islam، Lieden، 1972،pp.l32 - 41.

(3) Dr.A.Hourany، pp. 18 - 19

(4) Maxim Rodinson. a. Critical survey of Moder n studies on Muhammad (English Translation) oxford. 1981

الصورة الحية المتكاملة للرسول والقرآن إلى ألف نتفة وجذاذة»[1].

واعترض المستشرق السويدي Tor Andrae على هذا الاتجاه الاستشراقي المشكك في أصالة القرآن قائلًا: «كأن المهمة الكبرى للمستشرقين الدارسين لشخص الرسول هي محاولة فهم كيف أنه – بتأثير البيئة المحيطة – قد لفَّق أو زوَّر Forged أشتاتًا متعددة بالغة التنافر في كل واحد، هو القرآن[2].

لقد بذل المستشرقون اليهود أكبر الجهد في محاولة الطعن في أصالة القرآن الكريم، ولا ننسى الرابي أبراهام جيجر Geoger وتوري Torrey اللذين لم يريا في محمد إلا التلميذ المتلقي في معبد اليهود Synagogue ثم جويتن الذي يؤكد على أن الإسلام إنما هو مستمد من صميم لحم وعظم اليهودية[3] ولقد غلا هنرى لامانس اليسوعي في دراسته عن القرآن غلوًّا شديدًا أثار عليه المستشرق اليهودي جولدزيهر نفسه (!!) فانتقده فيما يذكر مكسيم رودنسون: «لقد شعر كثيرون من بينهم أنا شخصيًّا بنفس الشعور الذي عبر عنه جولدزيهر نفسه (ورواه لي الراحل ماسنيون في خطابه المؤرخ في 1964/ 8/ 7م قائلًا فيه: ماذا سيبقى من الأناجيل لو أن هنرى لامانس طبق عليها الطرق النقدية نفسها التي طبقها على القرآن».

ج – خدمته للاستعمار ووضع الاستشراق كل خبراته ودراساته في خدمة وزارات المستعمرات الغربية، وعمل المستشرقون في تلك الدوائر الاستعمارية كخبراء ومستشارين. إن أعداد المستشرقين الذين سخروا علومهم ومعارفهم لخدمة خطط المستعمرين يصعب حصرها، وحسبنا أن نشير هنا إلى كل من Alfrid Vo Kramer والروسي Bartold و Karl Heinrich Beker و Ch.H.Snock وماسينون ومستشاري نابليون، ويكفي أن نعرف أن مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية في جامعة لندن قد أنشئت بتوجيه من كيرزن لخدمة سياسة الإمبراطورية البريطانية، ولو قرأنا حيثيات قرار

(1) Ibid.

(2) Tor Andrae, Muhammad the Man and His Faith, N.Y.I 936.

(3) Goitein, Jews and Arabs, N.Y.I 955, p. 129.

تأسيس قسم الدراسات العربية في جامعة كيمبردج التي نشرها A.J. Arbery لعرفنا المزيد في هذا الصدد[1] ولقد تألم بعض المستشرقين من موقف زملائهم هذا، يقول Stephan Wild»..... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم، لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[2].

د – تقديم أنفسهم على أنهم مشيخة أو مرجعية للدراسات الإسلامية في العالم[3].

هـ – صك أحكام عامة نمطية جامدة عن الإسلام والمسلمين وتسويقها في الغرب والشرق على السواء.

و – تكريس نزعة الاستعلاء العنصري ضد الإسلام والمسلمين، وقد تمثل ذلك في محاولة تجريد الإسلام من أصالته في ميادين الفلسفة والتصوف والفقه والكلام والقيم العليا.. إلخ.

ز – اتهام الإسلام بالانغلاق والتعصب وعدم إقراره بالتعددية ومن ثم رفضه لقبول الآخر، أو عدم قدرته على التعايش معه.

ح – تشويه موقف الإسلام من المرأة خاصةً، ومن حقوق الإنسان عامةً.

ط – التحريض والتشويه والدس عن طريق اختلاق مفاهيم زائفة مثل «الأصولية الإسلامية» بهدف شيطنة الإسلام، وأسلمة الإرهاب لتسويغ ضرب الشعوب الإسلامية، أو التدخل في شؤونها وإخضاعها.

ي – تشويه مفهوم مبدأ الجهاد في الإسلام، وطرحه بصورة مستفزة مثيرة للآخرين بقصد تعبئتهم ضد الإسلام والمسلمين، وكذلك تشويه مفهوم عقيدة

(1) A.J. Arbery. The Cambridge School for Arabic. 1948. p.8.

(2) رودنسون في مقالة ضمن كتاب (تراث الإسلام) لشاخت وبوزورث ج1، عالم المعرفة، الكويت 1978م، ص83.

(3) A - Hourany. Ibid

القضاء والقدر.. إلخ.

ك - تحميل الإسلام مسؤولية تخلف الشعوب الإسلامية وضعفها وفقرها وانكسارها الحضاري.

مثل هذه الأحكام التي أنتجتها الجهود الاستشراقية، كانت موضع ملاحظة ونقد من بعض المستشرقين داخل المؤسسة الاستشراقية، بل كان انتقاد بعضهم للغلو الاستشراقي شديدًا ولاذعًا.

**2 - وثيقة مهمة في النقد الذاتي للاستشراق**

ومما يسترعي النظر أن النقد الاستشراقي الذاتي وإن كان قد بدأ مع بداية القرن العشرين، فإنه قد تصاعد في النصف الثاني منه، ومع ذلك فإننا قد عثرنا على وثيقة فذة بالغة الأهمية في النقد الذاتي للاستشراق ترجع إلى سنة 1705، وهي عبارة عن كتاب لأحد الكتاب الإنكليز هو الدكتور Henry Stubbe خصصه كله لنقد موقف المستشرقين من الإسلام ورسوله (ﷺ)، وعنوان الكتاب كاملًا:

«An Account of the Rise and progress of Mahometanism. with the life of Mahomet. and AVindication of him and his Religion from the Calumnies of the Christians.

أي: «قصة انبثاق المحمدية- الإسلام- وتطورها مع سيرة محمد، وتبرئته وديانته من افتراءات المسيحيين»[1].

لقد أثارت افتراءات المستشرقين شعور الدكتور هنري ستوب، وأحرجت ضميره، فانتدب نفسه للدفاع عن محمد (ﷺ) وتبرئته من تشويهات وافتراءات القوم. وكم كان هذا الرجل شجاعًا إذ وقف ضد التيار الجارف في الغرب، في هذا الوقت المبكر، ولعل هذا يفسر لنا بقاء هذا الكتاب مخطوطًا لأكثر من مائتين وثلاثين عامًا، ولعله يشير بطرف خفي إلى الظروف الغامضة التي لقي فيها هذا

(1) Hafiz Mahmud Khan Shairani (ed). London. Oxford and Cambridge press. 1911Reprint in Lohore. 1975.

الكاتب الحر حتفه غرقًا. وسوف نفصل القول عن قصة هذا الكتاب ومحتواه وأهميته العلمية والوثائقية في القسم الثاني إن شاء الله.

**3 - نقد الآخر:**

هذا فيما يتعلق بنقد الذات، أما فيما يتعلق بنقد الآخر، وأعني به: نقد العرب (مسلمين ومسيحيين) للاستشراق، فقد ظهرت دراسات تقويمية نقدية متعددة منذ بداية القرن العشرين أو قبلها بقليل، ولا تزال حتى يومنا هذا. ومما يلاحظ على هذه الدراسات أنها تتمثل في جهود فردية تفتقر إلى التكامل أو تفتقر إلى طابع المشروع البحثي العام، كما أن هنالك ندرة في الرسائل الجامعية التي تبحث في الاستشراق. ومما يذكر هنا أننا لم نفرغ بعد من دراسة الاستشراق، دراسة أفقية ورأسية تتناوله في التاريخ والجغرافيا معًا؛ أي أن تدرسه في مراحله المتطورة في المناطق المختلفة، وتدرسه على مستوى المناهج والقضايا والشخصيات والآثار والنتائج، وهذا يؤكد الحاجة إلى «قاعدة بيانات حاسوبية عن الاستشراق- منذ النشأة إلى اليوم- تمكننا من دراسة هذه الظاهرة بالغة الأهمية والخطورة من كل جوانبها».

لا شك في أن هنالك جهودًا فردية لدراسة الاستشراق وتقويمه في العالم العربي وفي شبه القارة الهندية. ونسترعي النظر إلى أن هذه الجهود قد قام بها المسلمون والمسيحيون معًا. ولا ريب أن جهود إخواننا المسيحيين العرب مثل إدوارد سعيد، وأنور عبد الملك، وألبرت حوراني، وجريجوار مرشو كانت أعمق أثرًا من غيرها، فقد أثارت ردود فعل واسعة بين المستشرقين وغيرهم[1].

(1) راجع كتابنا (الاستشراق: دراسات تحليلية تقويمية) وقارن رسالة الباحث: سالم عبد اللطيف للماجستير عن الاستشراق، وقد ناقشناها بجامعة عين شمس، 1999م. وقارن:
د. قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، الرياض 1983م.
آلانروسيون، المناقشات الدائرة حول الاستشراق في الساحة الثقافية العربية، ترجمة هاشم صالح، بيروت: دار الساقي، 1994م.

هذا ولو قارنا نقد المسلمين للاستشراق- في عمومه- بالنقد الذاتي للاستشراق، لرأينا تقاربًا شديدًا بينهم في التناول العام وفي جوانب النقد، وإن تفاوتت معالجة التفاصيل، وهذا- ولا ريب- يؤكد زيف المقولة الرائجة - في الغرب - بأن المسلمين يضيقون ذرعًا بالنقد. ومن ثم فإنهم يهاجمون الاستشراق والمستشرقين لا لشيء إلا لأنهم ينتقدون الإسلام والمسلمين.

ولا ريب في أن هذه الدراسات التقويمية للاستشراق من الداخل والخارج (من الأنا- والآخر) قد كان لها أثرها الإيجابي على موقف الاستشراق النمطي المغرض، لأنها استرعت انتباه بعض المستشرقين إلى الغلو والشطط في بحوثهم وأحكامهم ومن ثم عمل بعضهم على مراجعة أحكامهم وخططهم ومناهجهم، ومن ثم التراجع عنها وتصويبها. وعلى الرغم مما يمكن أن يقال عن سلبيات الاستشراق المعاصر- وهو غير قليل- فإن نزعة المراجعة والتقويم الذاتي داخل المؤسسة الاستشرقية في تنامٍ ملحوظ، لا يعكرها سوى استدعاء وسائل الإعلام وبعض مراكز البحوث السياسية الغربية لتلك الصورة المزيفة التي رسمها الاستشراق للإسلام والمسلمين عبر مئات السنين وإعادة إنتاجها وتسويقها من جديد في سوق عالمي ينعم بالسموات المفتوحة والطريق فائق السرعة للمعلوماتية المتعولمة أو المتأمركة.

---

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة هاشم صالح بيروت: دار الساقي 1994م.

خوان غويتسولو: الاستشرق الأسباني، ترجمة كاظم جهاد، نيقوسيا، 1987م.

إدوارد سعيد: الاستشراق، أنور عبد الملك: الاستشراق في أزمة، حسن حنفي: مقدمة في علم الاستغراب، جريجور مرشو: مقدمات الاستتباع، واشنطن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي 1996م.



obeikandl.com

## القسم الثاني: الكاتب والكتاب

### أولًا: الكاتب

لا يملك من يقرأ كتاب الدكتور هنري ستوب، سواء أكان مسلمًا أم مسيحيًّا غربيًا- إلا أن يسأل نفسه: أي نوع من الرجال كان هذا الرجل؟ وأية نفس كبيرة متمردة رافضة قد سكنت جسده وأنهكته بوقوفها ضد التيار العارم الصارم، وخروجها على لغته وروحه وتوجيهاته ومسلماته فيما يتعلق بالإسلام ورسولهﷺ؟. لقد امتلأت روحه وعقله وضميره بالحرج أمام ركام الزيف من الخرافات والأساطير التي نسجها المسيحيون الغربيون حول الإسلام ورسوله، وتوطنت عقول العامة والخاصة منهم، وتجذرت في مشاعرهم ووجداناتهم حتى كادت أن تتميز كرهًا وخوفًا.

ولد «هنري ستوب» لرجل دين مسيحي بروتستانتي صاحب رأي، فقد تمسك بعقيدة عدم وجوب تجديد العماد anabaptism في بلده، وهاجر بسبب ذلك إلى أيرلندا مع أسرته، ثم عادت الأم وولداها هنري وأخوه إلى إنجلترا سنة 1641م حيث التحق مؤلفنا بمدرسة في وسستمنستر ولقي تشجيعًا كبيرًا من مديرها لما أظهره من نبوغ ومواهب. أما السياسي Sir. Henry Vane.

(الذي أعدم فيما بعد سنة 1662م) فقد رعاه رعاية خاصة. وقد حصل الطالب هنري ستوب على منحة دراسية ملكية في أكسفورد نتيجة لتفوقه الملحوظ وتخرج سنة 1653م.

طمح إلى دخول البرلمان في اسكوتلندا، لكنه لم يفلح في مسعاه، وحصل في أثناء ذلك على درجة الماجستير M.A.، وعين بها في وظيفة أمين مكتبة

بودليان الشهيرة[1] Bodleian Library حيث قضى بها ثلاث سنوات، ثم فصل منها بتحريض ووشاية من Dr. E.Reynold مدير المكتبة سنة 1659م الذي شنع بدفاع صاحبنا عن السير هنري فين في الكتاب الذي نشره بعنوان «دفاع عن الفارس الحكيم المبجل السير هنري فين»، نشر في لندن 1656م.

وقد نشر كتابًا ثانيًا في نفس العام بعنوان:

(ضوء يلتمع من الغسق Alight shining of Darkness) وقد نظر إليه على أنه يشكل هجومًا على رجال الدين (الأكليروس Clergy) والجامعات.

بعد أن فصل من عمله بالمكتبة عمل طبيبًا لحسابه الخاص، وسرعان ما حقق شهرة سافر على إثرها إلى جامايكا للعمل طبيبًا للملك، ورجع إلى لندن سنة 1665م بعد أن لم يستطع البقاء هنالك لاعتلال صحته وعدم قدرته على تحمل مُناخِ تلك البلاد.

سرعان ما أعلن الحرب على علماء الجمعية الملكية البريطانية، وأسهم علماء كثيرون كبار في تلك المجادلات القاسية المطولة التي أثرت أدبيات تلك الفترة وقد كتب سنة 1672م ردًّا على رسالة لأحد الكتاب الهولنديين بعنوان (مسوغات الحرب الحالية ضد هولندا، ثم كتب مبررات إضافية لتلك الحرب، ومنح لذلك مكافأة مالية كبيرة من الملك، وسمح له بالاطلاع على الوثائق الرسمية. ونشر سنة 1673م (إعلان باريس) الذي هاجم فيه زواج دوق يورك من أميرة مودينا Mode-na، وقد اعتقل بسبب ذلك الهجوم العلني وهدد بالإعدام، وعومل معاملة سيئة، ولم يعرف بدقة متى أفرج عنه.

قلنا أن د. هنري ستوب قد اشتغل بالطب وفي أثناء زيارة لأحد مرضاه،

(1) تضم مكتبة بودليان اليوم مخطوطات وكتبًا إسلامية، ولا أعرف على وجه الدقة متى اقتنيت هذه المخطوطات، وهل تمكن هنري ستوب من الاطلاع عليها، وهل كان يعرف اللغة العربية إلى جانب اللغات اللاتينية واليونانية أم لا؟.

وفي عودته عبر نهرًا ضحلًا بحصانه في بلدة Bristol على بعد ميلين من محل إقامته في بلدة Bath فغرق فيه، وقد أدى طقوس جنازته خصمه اللدود (Mr. Glanvill).

وهكذا طويت حياة د. هنري ستوب بصورة غريبة مفاجئة تبعث علامة استفهام ملحة. مات هنري ستوب وهو في الخامسة والأربعين من عمره بعد حياة حافلة بالقراءة والنظر والتأمل والتمرد النبيل والمعارضة والمراجعة والتصحيح والخروج عن المألوف.

لقد تأملت كثيرًا شخصية هنري ستوب فوجدته قد ولد لأب يفضل أن يطرد من عمله الكهنوتي المرموق، وأن يهاجر من بلده إنجلترا إلى إيرلندا، على أن يتنازل عن معتقده الشخصي ويقبل ما قبله عموم الناس، لكنه الرفض النبيل والتمرد البطولي الذي أورثه لهذا الابن الذي كان عليه أن يدافع بشجاعة عن فارسه «السير هنري فين» هذا الرجل الذي رعاه صغيرًا، فلم يتنكر له ويقف في طابور المرددين للتهم السياسية التي أعدموه بها.

وكان عليه أن يقف في وجه مؤسستين حليفتين طاغيتين: هما رجال الكهنوت، ورجال الجامعات، وأن يبشر بنور يراه يلتمع في حالك الغسق!!

وكان عليه أن يشتبك مع رجال الجمعية الملكية في حرب شرسة كان لها أثرها على توجه العلم والفكر في تلك الفترة!!.

وكان عليه أن يعلن معارضته لأهواء الأمراء وأصحاب السمو على الملأ وأن يركب الصعب في سبيل ذلك!!.

كان على هذا الرجل أن يقف ضد المسيحيين الغربيين في تزييفهم لتاريخ ومعتقدات الجماعات المسيحية الأولى.

هذه المواقف وأمثالها تفسر لنا كيف أخذ الدكتور هنري ستوب على عاتقه بعناد تلك المهمة الصعبة والخطرة في نفس الوقت، أعني مهمة أن يفحص ما كتبه الغربيون عن الإسلام، وأن يراجع الصورة التي رسموها له ولرسوله (ﷺ)، مراجعة ناقدة موضوعية يعلو بها فوق التلقي الأمين والتسليم الساذج بكل موروثات المسيحيين الأوروبيين عن الإسلام والمسلمين، وأن يفضح أساطيرها وخرافاتها التي سمموا بها عقول الأوروبيين ومشاعرهم تجاه الإسلام ومحمد (ﷺ).

كان عليه أن يفوز بشرف كتابة هذا الكتاب الوثيقة، وهو أول كتاب يكتب باللغة الإنكليزية – فيما أعلم –، ولعله أول كتاب غربي يتصدى لهذه المهمة النبيلة التي تفضح مواقف المسيحيين الأوروبيين من الإسلام ورسوله، وتجتهد في رسم الصورة الصحيحة الواقعية عن الإسلام ورسوله، وأن يخرج عن السياق النمطي المألوف الذي انزلق إليه عباقرة كبار مثل دانتي وشكسبير وفولتير وغيرهم، لقد تمتع صاحبنا بعقل حر وتفكير مستقل تمثل في كراهيته للتقليد والجمود، وتجافيه عن التعصب والانغلاق على الذات، ودفعه إلى الاعتراف بالآخر وتقديره بأمانة وموضوعية كما هو في الواقع المتعين، وليس كما تهوى الأنفس، ويمليه الظن السيء، فإن الظن لا يغني من الحق شيئًا.

لقد كتب هنري ستوب كتابه هذا في القرن السابع عشر؛ أي في عصر الجهالة في موقف الغرب من الإسلام كما وصفه Southern وفي عصر الانغلاق المسيحي والتعصب التام ضد الآخرين على حد تعبير مؤرخ الأديان المعروف Eric Sharpe، وقبل حقبة الاستعمار والخروج الأوروبي العظيم، فكان فذًّا وجاء استثناءً ليؤكد القاعدة العامة التي استقرت في الغرب المسيحي، وأعني بها العمل المنظم والمخطط لتشويه الإسلام ورسوله (ﷺ)، وهي مؤامرة ضد الحق والعقل والحرية، قبل أن تكون مؤامرة ضد الإسلام ونبيه.

ومما يؤسف له أن هذا الكتاب قد بقي، لأمر ما، مخطوطًا[1] قرابة قرنين ونصف من الزمان، إلى أن هيأ الله له نزيل لندن الهندي حافظ شيراني فقام على تحقيقه وتوثيقه ونشره في لندن سنة 1911، ثم أعادت تصويره مكتبة أكسفورد وكمبردج ونشرته دار Orientalia في لاهور سنة 1975م. وإني سعيد إذ أقدمه اليوم إلى القاريء العربي بعد أكثر من ثلاثة قرون على صدوره، وبعد صدور وثيقة البابا يوحنا بولس الثاني تحت عنوان «نحن نعتذر ونسأل الغفران» كما جاء في العنوان الرئيسي لصحيفة «أوزافاتوري رومانو» جريدة الفاتيكان الرسمية[2]. وإن ما اعترف به البابا يوحنا في بداية الألفية الثالثة من ذنوب وآثام واعتذر عنه وطلب المغفرة هو نفس ما اعترف به د. هنري ستوب منذ 325 عامًا ورذل المسيحيين الغربيين به.

## ثانيًا: الكتاب... أفكار ونماذج(*)

يعد الكتاب أقدم أثر في الأدبيات الإنكليزية يتعاطف كاتبه مع الإسلام ورسوله، وهو يمثل فرصة فريدة لإطلاعنا على تصورات الأوروبيين المزيفة عن الإسلام، تلك التصورات التي لا تزال فاعلة في عقول بعض الغربيين ويظهر أثرها

(1) في المتحف البريطاني بلندن، وعندما كنت أتجول في هذا المتحف العريق في نوفمبر 2010 شعرت كأني أرى صورة هذا الفارس تملأ وجداني بل وتجري بعض عباراته على لساني.

(2) أعلن البابا بولس الثاني، في خطوة غير مسبوقة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الطويل اعتراف واعتذار الكنيسة عن الأخطاء التي وقعت فيها وارتكبتها على مدار الألفي سنة الماضية، وقد نشرت الأهرام في 20/3/2000 تحقيقًا مطولًا عن هذا الاعتذار والاعتراف الذي دعا فيه البابا إلى التوبة والندم على ما اقترفه الآباء والأجداد من ذنوب في الماضي الطويل، وقد جمعت الأخطاء والذنوب في سبعة عناصر رئيسية أطلق عليها (الاعترافات السبعة) من أهمها ما ارتكبه المسيحيون الغربيون من ذنوب وآثام ضد الإسلام والمسلمين.

(*) أثرنا أن نعطي الفرصة كاملة للكاتب ستوب ليقدم أفكاره بنفسه دونما تدخل منا بالتعليق أو الإضافة، وليس لنا من جهد سوى اختيار النصوص وتصنيفها وترجمتها إلى العربية عن اللغة الإنجليزية الكلاسيكية، مع بعض التوضيحات المنهجية والمعرفية الضرورية.

السيء فيما يكتب عن الإسلام، في المناهج الدراسية والمراجع والموسوعات ووسائل الإعلام وأفلام السينما.. إلخ.

يحتفظ المتحف البريطاني بثلاث نسخ مخطوطة لهذا الكتاب، علاوة على بعض خطابات ورسائل تبادلها هنري ستوب مع بعض العلماء والمفكرين، كما توجد نسخة مخطوطة أخرى للكتاب، أقدمها نسخة Mr. Charles Hornby وتعود إلى سنة 1705م، وقد أشار إليها Thomas Magney راعي كنيسة القديس نيكولاس في كتابه (ملاحظات عن الناصريين الذي نشره سنة 1718م. وقد نسب Mr. Wanely المخطوطة رقم (1876) في قائمة رئيسية تضم الفصول العشرة لهذا الكتاب، وقد كتب الأستاذ شيراني دراسة جيدة عن وصف النسخ المخطوطة، ووثق نسبتها إلى المؤلف توثيقًا بارعًا.

وعلى كل حال هنالك دراسة مفصلة عن الدكتور هنري ستوب وأعماله كتبها Mr. Antony Wood في الجزء الثاني من كتابه «Athenae Oxoniensis»

**يتكون هذا الكتاب من عشرة فصول هي:**

1 – نظرة عامة إلى حالة اليهودية والمسيحية منذ عيسى المسيح إلى محمد (ﷺ)..

2 – تقويم المؤلف للروايات السائدة عن تاريخ المسيحيين الأوائل وعقائدهم.

3 – تقرير موجز عن الجزيرة العربية والعرب Saracens.

4 – سيرة محمد (ﷺ) من مولده إلى هجرته من مكة.

5 – إنجازات محمد (ﷺ) في المدينة، وسفارة علي إلى العرب.

6 – غزوات محمد(ﷺ).

7 – حجة الوداع، وموت محمد (ﷺ) ومواراته الثرى.

8 – شخصية محمد (ﷺ) وادعاءات المسيحيين الخرافية عنه وعن ديانته.

9 – القرآن ومعجزات محمد (ﷺ). وبشارات الأسفار الدينية المقدسة به،

ورأي موجز عن ديانته وسياسته.

10 – عدالة الحروب الإسلامية، وتبرئة محمد (ﷺ) في موقفه من المسيحيين، وأنه لم ينشر ديانته بالسيف.

هذه فصول كتاب هنري ستوب ذلك الصوت الغربي الإنساني العميق المنصف الذي كان يشير أحيانًا إلى كتاب مسلمين مثل أحمد بن إدريس (أظنه القرافي المتوفي 684هـ) وابن كثير وأبي الفداء والبيضاوي، وكان في دفاعه عن الرسول (ﷺ) والإسلام يبين تهافت وتهاوي مزاعم الكتاب المسيحيين الأوروبيين ويصفهم في جرأة عجيبة بما يستحقون من أوصاف– في رأيه– مثل «المسيحيون الفسقة»[1] ويصف ادعاءاتهم بأنها نفايات (قمامة) حقيرة مثيرة للسخرية منهم[2]، ثم يشرح تصوره للمسألة التي يتناولها، وينتقد أحيانًا تفسير بعض الكتاب المسلمين المرموقين لبعض الظواهر والمسائل الإسلامية[3]، ويقدم توضيحات طريفة لها ويربط العلاقات بعضها ببعض، وهو كاتب مسيحي إنكليزي. وإن عبقريته لم تعصمه من الوقوع في بعض الأخطاء، كما أن حماسته لعقائد المسيحيين الأول (حورايي المسيح عليه السلام وتلاميذه الأقربين) جعلته يرى محمدًا (ﷺ) لم يخرج عن دائرتهم!!.

**أ – توضيح ودفاع عن عدالة الحروب الإسلامية:**

وليسمح لنا القارئ الكريم أن نستعرض له الفصل العاشر الأخير من الكتاب، يقول فيه هنري ستوب «إنه سُوقي ساذج ذلك الذي يذهب إلى أن محمدًا قد نشر ديانته بالسيف، وأنه لم يجبر العرب فقط على قبول عقيدته، لكنه فرض على خلفائه عهدًا أبديًّا وتكليفًا ملزمًا بأن يعملوا على استئصال المسيحية والأديان الأخرى لكي يحل الإسلام محلها ويصبح ديانة عالمية».

(1) Henry Stubbe. An Account of Rise and progress of Mahometanisni. (London. 1911. Lahore 1975. p. 142.

(2) Ibid. p142.

(3) Ibid. pp 136.

**ويتعجب ستوب قائلًا:**

ولكن كيف اعتقد الناس (في الغرب) على نطاق واسع بذلك، وكيف قال بها رجال عظام، وهي ليست إلا خطأً صريحًا!! حقًا لقد قام محمد بحروب عسكرية في الجزيرة العربية، لكنها كانت من أجل إعادة وإحياء الدين القديم (الذي أنزله الله على الرسل من قبل) وليس من أجل ديانة جديدة مبتدعة، ولقد دعا أتباعه إلى سحق الوثنية حيثما وجدت، وعلمهم أن العالم كله مدعو إلى الاعتراف بهذه الحقائق، أن لا إله إلا الله، لا شريك له، والعناية الإلهية، والثواب والعقاب، (وذلك تمامًا كما تصور اليهود أنفسهم مسؤولين عن دعوة الإنسانية كلها لاتّباع قانون الطبيعة الذي تضمنته تعاليم نوحٍ السبعة). ولكن أن يقال إن محمدًا (ﷺ) قد أكره الناس على ديانته أو أجبر أحدًا منهم على الإيمان بها فهذا هو التزييف بعينه.

ومع ذلك فقد تمسك كثير من رجال الكنيسة بأنه يجب أن تفرض الديانة المسيحية على الناس فرضًا، وأنه كان لهذا السبب فحسب يغزو الأمير أراضي أمير آخر ويستولي عليها ليفرض عليها المسيحية، ثم يبين (ستوب) ما كان يفعله ملوك الغرب المسيحيون في هذا الصدد ويذكر أن الأمثلة على ذلك تفوق الحصر. بل إنه وجد من بين اليهود هير كانوس الذي فرض على الأدوميين أن يختتنوا وأن يتهودوا. وباختصار فإن التاريخ المسيحي كله يعد مثالًا لهذه الترعة (إكراه الناس على الدين) وكان ذلك أمرًا مشروعًا يقره ويؤكد عليه علماء المسيحية.

وعلى الرغم من كل ذلك وجدنا البابوات ورجال الدين المسيحي يعدون المجادلات ضد حروب المسلمين «وإني لا أجد في الحروب التي خاضها محمد في الجزيرة العربية إلا حروبًا ضد الوثنية وليست لإكراه الناس على الإسلام، وأن محمدًا نفسه قد أعطى أمانًا وحماية لليهود والنصارى في الجزيرة العربية، ولم يستخدم العنف ضدهم ألبتة بهدف فرض العقيدة.

كما أن اليهود قد عاشوا في المدينة ينعمون بالأمن ويدفعون الجزية واستمروا

على ذلك إلى أيام عمر بن الخطاب الذي أخرجهم من الجزيرة العربية، لأنه قد أخبر أن محمدًا قد حظر وجود ديانتين مختلفتين في الجزيرة العربية مركز الدولة الإسلامية، وقد كان ذلك إجراءً أدنى لاعتبارات السياسة منه لاعتبارات الدين، لأنه لم يطردهم خارج الدولة الإسلامية كلها ويحرّم عليهم الإقامة في أية منطقة إسلامية أخرى.

وبالمثل فإن عمر بن الخطاب عندما فتح بيت المقدس قد أعطى للمسيحيين عهد أمن وحماية جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، من عمر بن الخطاب إلى سكان إيليا.. الأمن والحماية لسكانها رجالًا ونساءً وأطفالًا، لا تهدم كنائسهم ولا تخرب، ولا يمنع مسيحي من زيارتها، وكذلك كتب القائد العربي عمرو بن العاص بتوجيه من أبي بكر الصديق(*)- عندما فتح غزة- إعلانًا مماثلاً.. وبهذه الإعلانات يتضح أن المسلمين كانوا ينشرون دولتهم، وليس ديانتهم بقوة السلاح».

إن فكرة استخدام المسلمين للجيوش والسلاح من أجل توسيع رقعة الدولة وليس من أجل فرض الديانة، كانت فكرة أثيرة لدى صاحبنا وهي تستحق النظر والتقويم، ونراه يشبعها شرحًا وتفصيلًا ويسوق براهين كثيرة على سماحة المسلمين مع المسيحيين في الأندلس وفي اليونان، حيث كانت اليونان - وفي نفس الفترة التي كان يعيش فيها المؤلف - تحت حكم الدولة العثمانية، ويقول: إنه من الحقائق المؤكدة أن اليوناني العادي قد عاش في كنف الأتراك في ظروف أفضل من تلك التي عاش فيها تحت حكم أباطرته اليونانيين(2).

ويقر الدكتور هنري ستوب بأنه لولا حرص الملوك والنبلاء الأوروبيين على مصالحهم الشخصية لأسلمت أوروبا- كلها- نفسها للأتراك المسلمين.

(*) هو الفاروق عمر.

(2) وهذه الفكرة يوافق عليها، بل يدافع عنها كثير من الكتاب الغربيين المعاصرين أمثال مؤرخ الحضارة ولديورانت والسير توماس أرنولد في كتابه: الدعوة إلى الإسلام.

وينقل عن المؤرخ «المكين Elmacin» الذي اعتمد في كتابة تاريخه عن المسلمين على أوثق المراجع العربية، وكان هو نفسه وزيرًا لأمرائهم، أن محمدًا (ﷺ) قد أعطى الأمانة والحماية لأصحاب الديانات الذين واثقوه ودفعوا له الجزية. وأنه أرسل عمر إلى المسيحيين ليؤكد لهم أنهم سوف يتمتعون بالأمن والحماية في ظل الدولة الإسلامية وأنه سيحترم أنفسهم وأموالهم كما يحترم حياة المسلمين وأموالهم تمامًا.

ويشير إلى أن بعض الكتاب المسيحيين قد ذكروا أنه قد جرى اتفاق أو تحالف بين محمد والمسيحيين ينص على أن دفع الجزية في مقابل منحهم حرية ممارسة عقائدهم أي أنهم قد اشتروا تلك الحرية بالأموال التي دفعوها للمسلمين، لكن بعض العلماء المسيحيين نظر إليه على أنه ليس إلا بعض تلفيقات المسيحيين. ونظر إليه هنري ستوب على أنه من الخرافات الأسطورية، ويقول ستوب: «من كل هذا يتبين أن محمدًا وأتباعه لم يشنوا الحرب لكي يفرضوا ديانتهم على الآخرين، ولكن من أجل توسيع دولتهم.. ولكن يبقى أن نذكر أنه مع السيرة الحكيمة التي انتهجوها قد ازدادت أعداد المتحولين إلى الإسلام مع ازدياد فتوحاتهم، وأنهم لم يكرهوا الأمم المفتوحة على الإيمان بدينهم خوفًا من القتل أو فرارًا من التعذيب أو السجن أو أساليب الاضطهاد الأخرى، التي كانت ستسخط المسيحيين وتعمل على زيادة أعدادهم بدلًا من انتقاصها لحساب الإسلام. ويقول ستوب: إني أعتقد أن دليل ذلك أن المسيحية قد انتشرت واتسعت رقعتها تحت الاضطهادات العشرة التي تعاقبت عليها (من الرومان) وأنها قد اضمحلت وانكمشت تحت حكم العرب الرفيق بهم. وإننا عندما نقول إن دين محمد قد انتشر بحد السيف فإننا يجب أن نفهم أن ذلك كان نتيجة لانتصاراتهم، ولم يكن نتيجة قهر الناس قتلًا وذبحًا

على الدخول في ديانتهم. كما أنني أعتقد أن المسيحية مدينة في توسعها لأكثر الأساليب ظلمًا»[1].

ثم يسخر من انتقاص المسيحيين من الإسلام بسبب إباحته الاسترقاق والعبودية في الحروب قائلًا:

«وخلاصة القول إنه على الرغم من أن مبادئ المسيحيين تبدو كأنها تدين العبودية إلا أنهم قد مارسوا العبودية مرارًا وتكرارًا في البرتغال وأماكن أخرى كثيرة.. ومع أننا في العصور الأخيرة نحتجز في الهند الغربية أعدادًا لا حصر لها من الكائنات البشرية المسكينة تحت أبشع أنواع العبودية، ونحرمهم وذرياتهم من أن ينتفعوا بالإنجيل، لكي نضمن لأنفسنا أن ننتفع بتسخيرهم لخدمتنا، وهكذا فإننا حيث نحول بينهم وبين ذلك الباب الوحيد للعبودية (الحرب كما هو في الإسلام) نسترق أرواحهم وأبدانهم، ويالها من قسوة سوف يشعر المسلمون والوثنيون بالعار من ارتكاب مثلها!!»[2].

**ب - تعليقه على حجة الوداع:**

بعد أن تحدث الدكتور هنري ستوب في الفصل السابع[3] عن وقائع غزوات الرسول (ﷺ) وحللها تحليلًا سياسيًّا وعسكريًّا موفقًا أظهر فيه تقديره وإعجابه بتخطيط الرسول وقيادته لها، وقف يتأمل وقع هذه الانتصارات المذهلة على نفس الرسول القائد، فقال:

«على غير القادة الفاتحين الذين يكسبون معارك قد لا تكون لها من هدف سوى البحث عن أمجاد ومفاخر لأشخاصهم، يرفعون بها هاماتهم فوق البشر، فإن الرسول لم يعز شيئًا من هذه الانتصارات إلى بسالته وإقدامه، لكنه أرجع ذلك كله

(1) Henry Stubbe. Ibid. pp180 - 188.
(2) Ibid. p188.
(3) Ibid. pp118 - 131.

إلى معرفة السماء، واعتبر أن من المتعين عليه أن يلهج بالشكر إلى الله قدر طاقته، وأن يشكر الله شكرًا عامًّا علنيًّا».

«من أجل ذلك، ومن أجل أن يشبع حنينه، ويظهر توقيره للبيت الحرام، ومن أجل أن يقدم القدوة للناس في أداء مناسك الحج، لكي يؤدوا هذه الشعيرة على بصيرة، غادر الرسول المدينة لأداء فريضة الحج، مصحوبًا باثنين وسبعين ألفًا من الرجال والنساء الذين تجمعوا في موكب الحج مع الرسول.....» [1].

ونراه يجادل ابن الأثير المؤرخ المسلم الذي فسر مشقة بعض أعمال الحج بأن الرسول قد عمد إلى إقناع المشركين بأن أصحابه أصحاء أقوياء يقول هنري ستوب: أري من جانبي أنه مع أن الحب الشديد والتقوى هما اللذان دفعا الرسول إلى أداء مناسك الحج، فقد كان أمرًا بالغ الحكمة أن يزور الرسول مكة بعد غياب طويل عنها، وليس من أجل أن يثير الحسد والأطماع التي قد تسبب قلاقل، كما أنه أراد أن يظهر لأهل مكة بهذا الموكب المهيب أن إزالة الأصنام من البيت لم تقلل عدد قاصديه وحجاجه، ولم تنتقص من مكانة وشرف مكة التي تأكد كونها عاصمة جميع المسلمين[2].

**ويستطرد قائلا:** بعد أدائه الحج وإرشاده المسلمين عن كل ما يتعلق بدينهم وعبادتهم، قفل الرسول راجعًا إلى المدينة لكي يحتفظ رجاله بنظامهم السابق، ولكي يظهر للعرب كافة أن الانتصارات العسكرية والسلطة لم تغير من نفسه، وأنه لم يقلد نفسه صولجان الملك، ولكنه احتفظ بما عرف عنه واشتهر به من أنه «رسول الله» ويقول:

إن احتقار الرسول لزخارف الملك لم ينتقص من نبله وجلاله، إنه زهد في مظاهرها بينما تحمل تبعاتها. ويرى هنري ستوب أن عودة الرسول إلى المدينة كانت أمرًا حيويًّا توجبه الظروف الراهنة عندئذ.

(1) Ibid. pp.132

(2) Ibid. pp135 - 136.

**ج - شخصية الرسول ومزاعم المسيحيين الأسطورية ضده وضد ديانته :**

عقد المؤلف الفصل الأول من كتابه هذا لبيان حالة اليهودية والمسيحية منذ عيسى عليه السلام إلى زمان محمد (ﷺ)، وقال مستهلًا هذا الفصل: لقد كان انبثاق الإسلام وتطوره واحدًا من أعظم التحولات التي وقعت في العالم، لأن دينًا جديدًا قد ظهر منذ ألف عام، ومكّن لنفسه (في استقلال تام عن الوثنية واليهودية والمسيحية) وزاد من رقعته، ونشر أتباعه بسرعة فوق خمس العالم المعروف بصورة لم تعرفها الجماعات اليهودية، وربما لم تعرفها المسيحية نفسها[1].

ويقول: قبل أن ندلف إلى سيرة هذا الرجل وشخصيته، الذي استحق بأعماله تقدير واحترام جانب من العالم، وملأ الجانب الآخر بالدهشة والتعجب، ولسوف نحاول، بكل ما لدينا من طاقة أن نكتشف الوسائل التي حقق بها تلك الأعمال المجيدة. ثم نحاول دراسة أحوال صحابته وأتباعه، والتعرف إلى دوافعهم وراء هذا التحول العجيب ومناصرتهم للإسلام أو الثورة المذهلة[2].

أما الفصل الثامن فيخصصه للحديث عن شخصية الرسول (ﷺ) وتفنيد مزاعم المسيحيين الأوربيين عنه، فيبدأه برسم لوحة رائعة لبيان ملامحه الجسمية والنفسية، فيبدأ مخاطبًا قارئه قائلًا له: أنا لا أشك أنك الآن تتطلع إلى أن تتعرف إلى صورة ذلك الرجل الفذ، لقد سكنت نفسه العظيمة جسمًا ربعة.. ثم يواصل حديثه المشوب بالإعجاب والتقدير إلى أن يقول: وهكذا اجتمعت فيه كل المؤهلات التي يتطلبها تحقيق الأعمال الجليلة، كان مؤهلًا للأعمال العسكرية، كما كان مؤهلًا للأعمال المدنية وسياسة الحكم، تلك التي كانت موضع افتراءات المسيحيين (الأوروبيين) ضده ولسوف يتضح ذلك، لكل متأمل، من الروايات السابقة المعطاة عن حياته وأعماله، تلك التي اقتبسناها من أكثر الكتاب العرب وغير العرب موثوقية. كما أننا

(1) Ibid. p.1.
(2) Ibid. p.2.

قد عارضنا كلية ذلك الركام من الهراء (النفايات) الخرافية المثيرة للسخرية، الذي حشيت به معظم الروايات التي نسجها المسيحيون (الأوروبيون) عنه[1].

ويقول هنري ستوب: (إنك لو كلفت نفسك عناء النظر في روايات الكتاب المسيحيين التي كتبوها عن محمد لوجدت أنها تفتقر إلى التماسك والرصانة، كتلك التي لاحظناها من قبل (اللهم إلا بعض ما كتب عنه في القرن الأخير– السابع عشر– الذي شهد بعض التحسن في المعارف الشرقية).. نعم لقد نشر المسيحيون عنه أباطيل كثيرة جدًّا [2].

ثم ينتقل إلى مناقشة ودحض بعض مزاعم كتاب النصارى الأوروبيين عن الرسول فيقول: لقد بات من المسلم به، بعد التدقيق في المراجع العربية والمسيحية الموثوقة أن محمدًا قد انحدر من أكرم قبائل العرب محتدًا من جهة أبيه وأمه معًا.

ورغم ذلك، نجد أن الكتاب المتعصبين يذهبون إلى أن محمدًا لم يكن شريف النسب، كريم المحتد، وذهبوا إلى ما هو أكثر من ذلك في غرابته فقالوا: إن أباه كان حيثيًّا، وأن أمه كانت يهودية. هذا على الرغم من أن الكتاب المسيحيين الذين عاشوا بين المسلمين مثل Elmacin وآخرين قد بينوا ما يتمتع به محمد بين المسلمين من إجلال وتعظيم. كما أن بعض المسيحيين لا يزالون إلى اليوم يرددون أن محمدًا كان عدوًّا للمسيح، وأنه قد استنبط اسمه بطريقة سرية من طلسم الرقم 666، ويعلق ستوب على ذلك قائلًا: لا شيء يثير السخرية مثل ذلك!، أليس من الحماقة أن يتهجى الإنسان اسم رجل بطريقة خاطئة، ثم يتخيل أسرارًا طلسمية في هذا؟.

ثم يحدثنا عن طريقة كتابة اسم الرسول (ﷺ) فيقول: في اليونانية: بعضهم يكتبه هكذا، ويكتبه آخرون هكذا وفي اللاتينية، Machomet، Machumet، Maomthes، Magmed وفي العربية Mohammed، Muhammed وهو يعني: المروم، أو المُجتبى.

(1) Ibid. pp. 141 - 142.

(2) Ibid. p.142.

ثم ينتقل بنا المؤلف إلى نقطة أخرى «مختلفة» نشير إليها لطرافتها وجدتها بالنسبة للقاريء المسلم، والأكثر طرافة هو أن صاحبنا يقرها ويراها حقيقة تاريخية، وهي أن الرسول (ﷺ) قد خرج في سرايا عسكرية إلى مصر وشمال إفريقيا وأسبانيا[1].

ويرى أنه – أي الرسول (ﷺ) – قد تحاور مع المسيحيين بكل طوائفهم ويبدو أنه قد أحاط علمًا بجميع عقائدهم والأسس التي أقاموها عليها، ولم تكن معرفته بالمباديء اليهودية والتعاليم التلمودية أقل من ذلك، وقد تجلى ذلك في القرآن الكريم.

وقد كانت حال العرب موزعة بين اليهود ومتهوّدة المسيحيين، ومتهموّدة العرب، والآريوسية، واليعقوبية، والنسطورية ومثلثة النصارى، والمانوية، والمونتانية، والصابئية، وعبدة الأوثان، كل ذلك أعطى محمدًا فرصة سانحة للاطلاع على هذه المذاهب والأديان، لكن المسيحيين (الأوروبيين) قد أعطوه مساعدين: أحدهما عبد الله وهو يهودي، وكان الآخر راهبًا مسيحيًّا نسطوريًّا اسمه سرجيوس، وأظهروا محمدًا نفسه على أنه تابع جاهل لا يدري ما يبثه هذان الرجلان في عقله ووجدانه، وهذا– في رأيهم– سبب تلك الأخطاء التي وجدت في القرآن. ولم أجد بين أصحابه من يسمى سرجيوس، ولو كان له معلم نسطوري– كما زعموا– فلِمَ لم يجذبه نحو النسطورية، ويبشر بأن عيسى كان إلهًا حقًّا وإنسانًا حقًّا في إطار شخصية مزدوجة أو طبيعة مزدوجة. ولماذا لم يذكر أسماء نسطور وتيودور مبسوستنسس أو ديدور تارسوريس ويعترف بهم كقديسين؟ ولماذا لم يشجب ويدين سيرل الإسكندراني؟. كما أني أعلم بأن أحدًا من أتباعه لم يفعل شيئًا من ذلك، ونحن لا نجد في ديانتهم شيئًا من النسطورية ولم تكن لمحمد علاقة ما بهذا الراهب المزعوم، ولم يكن هو الجامع أو المؤطر للإسلام كما افترى الأوروبيون، ولم يكن محمد مهتمًّا في يوم ما– مثل بقية النساطرة بتقوية علاقته بالفرس وبعد أن

(1) Ibid. p.143.

يدحض الدكتور ستوب هذا الزعم يأتي إلى افترائهم بأن معلمًا يهوديًّا كان يرشده فيقول: لم يتخذ محمد مرشدًا يهوديًّا مطلقًا لأنه كان عظيم التقدير والإعجاب بعيسى عليه السلام، وقد أعلن ذلك مرارًا فقال إن عيسى كان سلفه في الرسالة، وإنه يحمل نفس العقيدة التي بلغها عيسى للناس من قبل، كان هذا يعطي ذريعة للادّعاء بأنه مسيحي وليس يهوديًّا. ويضيف الدكتور ستوب: وأنا لا أعتقد ألبتة أن محمدًا قد أحب يومًا أو داهن اليهود، ولم يمتدحهم في القرآن.. وأنا أظن كذلك أن تغييره للقبلة من بيت المقدس إلى الكعبة جاء في سياق كراهته لأفعالهم، كما أنه حَرَصَ على مخالفة عاداتهم في صيام عاشوراء، مما يؤكد أنه لم يكن ليستجيب لمعلم يهودي. ثم يقول: دعونا من تصديق هذه القصص الخرافية!!.

لكن مؤلفنا قد التبس عليه التشابه الكبير بين الإسلام وعقيدة المسيحيين اليهود سواء في عدم الاعتراف بالتثليث، أو النظر إلى عيسى على أنه بشر رسول، أو نظم التقوى لديهم.. إلخ، فاستنتج من ذلك أن الرسول (ﷺ) قد تمثل بهم أو أخذ عنهم، خصوصًا وأن هذه الطائفة كانت مضطهدة من قبل المسيحيين واليهود والرومان، وكانت تختبئ في الجزيرة العربية[1].

ويقول: أرجو أن يكون فيما ذكرته كفاية لتوضيح أن ديانة محمد قد تشابه إلى حد كبير ما وجد لدى الناصريين والأريوسيين، ومع ذلك فإنني لا أعتقد أن واحدة منهما يمكن أن يكون لها أي يد في بناء القرآن الكريم، لأنه لم يكن مؤلفًا أو ملفقًا (كما أساؤوا إلينا وأفهمونا ذلك خطأ) دفعة واحدة، قبل أن يبدأ محمد رسالته، لكنه نزل بعد البعثة تبعًا لأسباب النزول، ونزل معظمه في المدينة، وقد كانت أعين كثيرة تراقبه، ولم يكن ليقبل أية معونة من أي جانب[2]، (لأنه لم يكن بحاجة إليها).

ثم ينتقل إلى رفض ما زعمه قومه على الرسول (ﷺ) بأنه كان مريضًا بالصرع

(1) Ibid. p.145.

(2) Ibid. p146.

وهذا يأتي في إطار اتهامه بأسوأ أنواع الدجل والاحتيال، في نفس الوقت الذي يصفونه بأنه كان من البُله المعتوهين، ويسخر ستوب من قومه قائلًا:

«لقد اتهموه بأبشع أنواع الاحتيال والدجل غير مراعين أن مزاعمهم يناقض بعضها بعضًا»[1]. لقد ذكروا لنا أنه كان يعاني من الصرع ويتظاهر بعد أن يفيق من نوباته بالشعور بالابتهاج والفرح ويردد عليهم البسملة ويكرر اسم الله الرحمن الرحيم، ويتلو سورًا من القرآن.

ويعلق الدكتور ستوب على ذلك بقوله: لقد رفضت هذه القصة لأنها لم تذكر في المراجع العربية، كما أن المسلمين لم يذكروا عن رسولهم أي نوع من ذلك الوجد الصوفي. كما أضيف أن القرآن لم ينزل عليه بهذه الكيفية.

ويضيف: «وليس أقل تفاهة من ذلك، قصة الحمامة التي قالوا إن محمدًا قد دربها على أن تلتقط الحب من حول أذنه، فهي تحط على كتفه، وتلتقط الحب، فتبدو كأنها تحدثه أو توحي إليه بوصفها رمزًا للروح ممثلًا للروح القدس[2]. ويناقش الدكتور ستوب هذا التخريف– على حد وصفه – مستنكرًا إمكان حدوث ذلك عمليًّا، وكيف يقدم محمد على ما يزرع الشك في نفس أصحابه وأعدائه المتربصين به، ويطرح تساؤلات ينكر بها على المسيحيين الأوروبيين افتراءهم لها. ثم يخاطبهم قائلًا: أود أن تخبروني على أي أساس بنيتم خرافتكم هذه إذا كان المسلمون لم يشيروا ولو مجرد إشارة إلى شيء من ذلك، ولم يذكرهم أحد من المسيحيين العرب غير كاتب واحد Critious الذي استفسر منه الدكتور Pocock عن المصدر الذي استقى منه ذلك، فكان جوابه أنه لم يستند في ذكرها إلى روايات المسلمين Mahometans ولا إلى كتابات المسيحيين العرب، ولكن إلى كتابات المسيحيين الأوروبيين، ولاسَّيما إلى Scaligar في تعليقه على Manilius الذي

(1) Ibid. p.149.

(2) Ibid. pp.149 - 150.

ذكر قصة الحمامة، وهذا كل ما يمكن أن يقال عن تلك القصة.

ويضيف: إني أميل إلى الاعتقاد بأن ملفق هذه الخرافة إنما هو شخص جاهل نقلها من أثناسيوس Athanasius إلى محمد، لأنه قد روى بخصوص هذا الأب أن حمامة في الطريق قد طارت إليه وحطت على كتفه قريبًا من أذنه، وقد فسر المثلثون بأن الحمامة إنما هي جبريل، أما الأريوسيون Arrians فقد قطعوا بأن ذلك هو السحر الذي يعتري أثناسيوس، ولقد وجدت في قصص القديس جورج أن أثناسيوس كانت له شهرته الواسعة كساحر[1].

ويسوق لنا ستوب خرافة مسيحية أخرى هي ذلك «الثور» الذي روضه محمد، وكان يطعمه بيده، ومن أجل ذلك اعتاد على أن يجري نحو محمد عندما يراه، يقول المسيحيون الأوروبيون: ذات يوم ربط محمد نسخة القرآن في قرني ذلك الثور، وبينما كان محمد يعلم أصحابه الشريعة، اندفع ذلك الثور إلى مجلس محمد وقدم إليه القرآن، الذي استقبله محمد والمسلمون معه بكل مظاهر التقوى والتبجيل على أنه مرسل إليهم من الله. وفي تلك الأثناء حطت حمامة عليه ومعها مخطوط مكتوب فيه: من يقيد ذلكم الثور سوف يصبح ملكًا على العرب. وهنا يندفع الراهب النسطوري سرجيوس إلى تقييد ذلك العجل، وينادي به ملكًا على العرب. وتصبح للقرآن المرجعية والقداسة.

ويعلق الدكتور ستوب على هذه الفرية قائلًا: بمثل هذه الاختلافات قدم الغربيون المسيحيون محمدًا للناس على أنه أخس دجال في العالم...

كما حولوا أحكم مُشرِّع على الإطلاق إلى مجرد مخادع محتال.

ويضيف: مع أن القرآن لم يكتب مرة واحدة على الإطلاق كما بينت ذلك بالفعل، ولم يجمع في كتاب واحد في حياة محمد، لأن أبا بكر وعثمان هما اللذان جمعاه في كتاب واحد، كما أنه لا توجد إشارة إلى تلك المعجزات في التواريخ

(1) Ibid. p.150.

الإسلامية، التي تذكر معجزات الرسول[1].

ويطلعنا ستوب على زعم آخر قائلًا: ومن الخرافات التي لا تعقل قولهم إن محمدًا قد وعد أهل مكة (عندما طالبوه بمعجزة) أن يدعو الجبل فيأتيه الجبل، مسرعًا، واجتمع الناس، ودعا محمد الجبل، فلم يتحرك، فقال محمد بخفة: إن لم يأت الجبل إلى محمد، فليذهب محمد إلى الجبل!!

ويسترعي الدكتور هنري ستوب الانتباه- في تعليقه على ذلكم- إلى نقطة جديرة بالملاحظة، فيقول:

«هل يمكننا أن نتخيل حماقة أشد من حماقة هؤلاء القوم؟!! وتأمل سذاجة هؤلاء المسيحيين الذين ضللوا، وسذاجة هؤلاء المسيحيين الذين ضُللوا، وسذاجة أولئك المضللين بمثل تلك التلفيقات الغبية!!

وفي التخاريف التي نسجوها حول قديسيهم مثل هذه الحكايات، وعلى المرء ألا يتعجب إن هم لم يلفقوا لأعدائهم خرافات أفضل منها!!

ولم تحتمل نفس الدكتور ستوب المضي قدمًا في الحديث عن مزاعم المسيحيين الأوروبيين عن الرسول (ﷺ) ورسالته فيصرخ قائلًا:

«إني مشمئز (مقروف) من التقليب في مثل هذه الزبالة (القمامة) [2].

وخروجًا عن ذلك يسرع الدكتور ستوب بالحديث عن قصتين أو ثلاث فقط، فيقول: أخبرنا بعضهم أن محمدًا أمر واحدًا من أتباعه أن يسبقه إلى بئر على الطريق وأن ينزل إلى أعماقها، وعندما يقترب منها محمد وأتباعه يصيح بأعلى صوته قائلًا: محمد حبيب الله! محمد حبيب الله! وهنا يشكر محمد ربه لأنه شهد له بمحبته أمام هذا الجمع الغفير من الناس، ويأمر الناس بردم البئر

(1) Ibid. p.151.

(2) Ibid. p.151.

بالحجارة وبناء مسجد صغير عليها تخليدًا لهذه المعجزة، وبهذا دفن محمد صاحبه كيلا يكشف الخديعة.

ويسخر د. ستوب من وقاحة هؤلاء المفترين قائلًا: كان على هؤلاء أن يكدوا أنفسهم ليخبرونا عن موقف عامة المسلمين عندما عرفوا ظروف هذه الخدعة كما قصوها علينا؟!

ويقص علينا خرافة أخرى فيقول: أخبرونا أن محمدًا قد وعد أصحابه أنه سوف يبعث ويقوم من رقدته بعد ثلاثة أيام، ولما كان أصحابه ينتظرونه، وطال انتظارهم، وبدأت رائحة الموت تنبعث، ولم يعد إلى الحياة، وقد وضع جثمانه في تابوت حديدي وعلق في الهواء باستخدام قوة حجرين من المغناطيس!! في حين أخبرنا آخرون أن الكلاب قد نهشت جثته، وأن ما تبقى من عظامه هو الذي وضع في القبر.

ويعلق على ذلك بقوله: إن مثل هذه التلفيقات تثير ضحك المسلمين منها، وتجعلهم يسخرون بالمسيحيين الذين يتحدثون بها[1].

ويضيف قائلًا: إن الدكتور Pocock دحضها غير مرة، وها أنا أعيد كلماته التي ألقاها في جامعة أكسفورد عندما استجاش همم الأساتذة لدراسة اللغة العربية. ويضيف: إن العبارة الأخيرة للدكتور Pocock قد ذكرتني ببعض التشويهات التي دأب المسيحيون الأوروبيون على انتقاص المسلمين بها، ولا يزال المسيحيون إلى اليوم يلزمون المسلمين المتحولين إلى المسيحية بأن يلعنوا ويتبرأوا من شعائر وعبادات وثنية لم نعلم أنهم كانوا يقومون بها، بل كانوا أبعد الناس عنها[2].

---

(1) Ibid, p.152.

(2) كان الكاثوليك في الأندلس وغيرها من المناطق يبررون قهر المسلمين على التحول إلى المسيحية أمام أنفسهم وأمام الناس بزعمهم أن المسلمين ليسوا إلا عباد أوثان وأصنام!!

لقد تجرأوا على المسلمين بقولهم: إنهم يعبدون نجمة الصباح وفينوس بعد أن سموها Cabar، التي تعني بالعربية الإلهة العظيمة!، ويعجب كيف أن كتابًا كبارًا مثل Ethymius Zygabenus في (التعليم الإسلامي الشفوي) وسدرينوس Ce-drenus وآخرين مثل Selde، Pococ، Hottinger يقعون في مثل هذا. وما هتاف المسلمين – المشار على أنه عبادة لنجمة الصباح أو فينوس – سوى كلمات الآذان الإسلامية المعروفة.

وليس أقل بطلانًا من ذلك ادعاؤهم أن المسلمين يعبدون فينوس تحت اسم Bracthan، وقد صوروا لها صورة يقدسونها!! ويعلق ستوب على ذلك بقوله: إن ذلك القول صريح البطلان، وليس ما يتكلمون عنه غير «الحجر الأسود»، الذي لا يعبده المسلمون، ولكنهم يقبّلونه تشريفًا على أنه أثر من آثار الجنة، أو لأسباب أخرى يذكرونها، وربما يكون الناس قبل محمد قد عبدوه، لكن محمدًا وأتباعه لم يعبدوه بتاتًا، ولم يسموه Bracthan، وعلى كل حال فإن لغوينا لا يزالون يتساءلون في حيرة عن المصدر الذي اقتبس منه المسيحيون هذا الاسم!!

ويضيف ستوب: ولأن المدعو Ethymius Zygabenus قد ذكر صنمين آخرين للمسلمين وهما ليس إلا الصفا والمروة اللتين يسعى بينهما الحجاج رجالًا ونساءً في مكة.

ثم يختم الدكتور هنري ستوب هذا الفصل بتعليق طويل ضد زعم المسيحيين هذا قائلًا: هل يستحق مثل هؤلاء الكتاب المسيحيين الذين كتبوا هذا عن محمد (وكان معظمهم من الكتاب اليونان واللاتين) أي مصداقية!! وهل لنا أن نلوم المسلمين حين يسخرون من تلك التلفيقات التي يضعها كتابنا عن رسولهم؟! ومهما تكن الأخطاء أو الحماقات التي اختلقوها ضد المسلمين، فإن من المؤكد

أن المسلمين أبعد الناس عن عبادة الأوثان والوثنيات!! [1].

وإن محمدًا قد قضى على عبادة الأصنام، وإن بعض الشعائر القديمة التي أبقاها في ديانته، إنما أبقاها لغرض آخر يختلف عما كان لها من قبل.

**ويقول:**

ما أبعد هؤلاء المسلمين عن الوثنية! وما أشد نفورهم من التماثيل والصور! إلى درجة أنهم لا ينقشون على عملتهم أية صور، ويستبدلون بذلك كتابة بعض العبارات الإيمانية، كان المسلمون كذلك ولا يزالون، بل حتى إن الأتراك في أيامنا هذه لا يقبلون أية عملة مسيحية عليها نقوش آدمية أو حيوانية، إنهم أزالوا الأصنام والصور (التي كان الناس يقدسونها) حيثما وجدوها ووجدوا إلى ذلك سبيلًا.

ويجب أن نقر ونجهر بأنهم لم يعبدوا إلا الله الحق، وإن كانوا قد ارتكبوا يي خطأ فهو خطأ في الوسيلة وليس في الهدف، ولقد وجد الإمبراطور Manu-el Comnenus غيرَ سبب، فيما يبدو، لكي يغير صيغة القسم الذي كان يجبر من يتحول إلى المسيحية من المسلمين أن يتلوه (وكما يذكر الدكتور بوكوك في بحثه أنه كان يتضمن التبرؤ من إله محمد وسبه) إلى صيغة أخرى[2].

**د - القرآن ومعجزات محمد:**

عقد مؤلفنا الفصل التاسع للحديث عن القرآن وعن معجزات النبي الأخرى، وبشارات الرسل السابقين بنبوته وعن ديانته وسياسته، وقال في صدر الفصل:

بعد أن تحدثنا عن الكثير من الأخطاء والتلفيقات التي أذاعها المسيحيون ضد محمد ودينه وفندناها ودحضناها، وعلى الرغم من كونها بينة الزيف ومثيرة

(1) Ibid. p.155.

(2) Ibid. p.135.

للسخرية، فإنها قد انتشرت على نطاق واسع، وابتلعها الناس بشهية مفتوحة بسبب سذاجتهم في تلك العصور الغابرة، وتلقفتها الأجيال بالتسليم والقبول دونما امتحان وتمحيص إلى المائة سنة الأخيرة (القرن السابع عشر الميلادي). ولسوف أحاول فيما يلي أن أميز الحق من الباطل في مسائل أخرى متعددة، أن الجهل وتعمد الأذى والحقد لدى هؤلاء المنتقصين من الإسلام سيبقى ظاهرًا ومن ثم فإن تفنيده ودحضه ينبغي أن يشتد ويقوى[1].

ثم يقدم دراسة موجزة عن القرآن، وكيفية نزوله، وتلاوته، وتدوينه والأدوات التي كان يكتب عليها، وجمعه في مصحف واحد لأول مرة بأمر الخليفة الأول أبي بكر الصديق، وحفظ هذه النسخة في بيت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب، ثم جمع الخليفة الثالث عثمان الناس على هذه النسخة الواحدة وترك ما عداها، مع بيان أن القرآن قد نزل منجمًا طبقًا لحوادث معلومة، وأن لغة القرآن ليست من النثر المبتذل أو الدارج، لكنها صياغة شعرية (بلاغية) رائعة...، ثم يذكر أن محمدًا نفسه قد ذكر مرارًا وتكرارًا أن هذا القرآن هو معجزته وبرهان صدقه في رسالته. وأنه تحدى كل من يشك في ذلك أن يأتي بعشر سور مثله.

ويقول: ينظر المسلمون إلى أن كل آية[2] من آيات القرآن تعد معجزة، وبهذا فإن كانت المعجزات الحسية هي براهين صدق الأنبياء، فإن محمدًا قد قدم آلاف المعجزات (آيات القرآن) بما تحتويه من شرائع وهي معجزات يمكن نقلها للأجيال، على صدق رسالته. وإن الله قد فضل محمدًا بأن أعطاه معجزة باقية على مر العصور، لأن الحق ينبغي أن يكون في كل العصور يقينًا ومقنعًا. وقد قال بذلك كل من البيضاوي وأحمد بن إدريس والغزالي.

(1) Ibid. p.156.

(2) لفظ الآية في العربية من معانيه: المعجزة.

ثم يضيف قوله: الحق أني لم أجد كاتبًا متمكنًا ينازع في القرآن روعته وهنالك تقدير عام بأن القرآن يعد النموذج والمعيار للغة العربية وفصاحتها، لكن هنالك اعتراضات متعددة من الكتاب المسيحيين على عدم التناسق، والغموض، وأخطاء التاريخ، والتقاويم، واتهامه بعدد لا حصر له من التفاهات والأساطير والسخف المنافي للعقل[1].

وقد فند الدكتور ستوب هذه الاتهامات المسيحية للقرآن وبذل جهدًا كبيرًا في ذلك، فبدأ باقتباس شهادة من وصفه بالعالم الراحل السير جون جريجوري التي أوردها في صدر كتاب له وجاء فيها: لقد سألني ذات مرة رجل ذكي عما إذا كان القرآن – كما هو في ذاته يمكن أن يؤدي إلى اليقين البرهاني أو الإيمان العقلي؟. فأجبت على الفور: نعم!!، ثم يقارن السيد جون جريجوري بين القرآن والكتاب القدس، ويرى أن القرآن لو قرأناه في نصه الأصلي، أو في ترجمة جيدة سيبدو أكثر تميزًا.

**ويضيف**: نلاحظ أن هذا الرجل العالم ليس لديه رأي مريض عن القرآن وقد لاحظنا في بحثنا أن أولئك الرجال الذين تدبروا القرآن وكتب المسلمين الأخرى، قد تحرروا من كثير من تحيزات المسيحيين الأوروبيين العامة ضد القرآن وصاحبه، وتبنوا وجهات نظر أكثر إنصافًا وإعجابًا من أولئك الذين استبد بهم كرههم وجهلهم.

**وينتهي إلى نتيجة واضحة فيقول:**

«إننا إذا نظرنا إلى القرآن كما ننظر إلى أي كتاب آخر، دونما تمييز أو تحيز، فسنجد القرآن أكثر تميزًا من كتاب المسيحيين المقدس!!

(1) Ibid. p.158.

ثم يذكر د. ستوب بعض مزايا القرآن[1]. وينتقل إلى الحديث عما أسموه أخطاء التاريخ والتقاويم فيقول: ألسنا ندافع اليوم عن مثل تلك الأخطاء في أسفارنا المسيحية بقولنا إن روح الله التي أوحت إلى الأنبياء لم تكن حبيسة للقواعد اللغوية أو المناهج المألوفة!!. ويضيف: إنها أخطاء لأنها تتفق مع ما جاء في أسفار الفرق المسيحية الأخرى التي اعتبرتها الكنيسة مزورة.

ثم ينتقل إلى الحديث عن مسألة مهمة تتعلق بترجمات القرآن إلى الإنجليزية فيقول: من الملاحظ بوضوح أن القرآن بصياغته الشعرية، لا يمكن تقديره في ترجماته النثرية العادية التي نمتلكها. إن ترجماتنا الإنجليزية للقرآن، تحذو حذو الترجمات الفرنسية، وتلك الترجمات الفرنسية للقرآن بَيَّنت الفساد المتمثل في تغيير نصوص كثيرة وتبديلها وحذف نصوص كثيرة أخرى[2]، وكان على مترجمينا أن يستفيدوا من المفسرين العرب والفرس والأتراك، لكنهم لا يعرفون تلك اللغات، ولم يكن ذلك من همهم، وكل همهم في العالم هو إقحام تلك التلفيقات التي لم يَنْطق بها محمد (في القرآن).

ثم يختم الدكتور ستوب تعليقه قائلًا: لقد تأملت التحفظات التي أخذها المسيحيون على القرآن، فوجدتها ليست شيئًا غير تلك التي أثيرت بقوة ضد كتابنا المقدس، وما سوف يدافع به المسيحيون عن أنفسهم يكون كافيًا في الدفاع عن القرآن!! لذلك فإني لن أعتذر عن الأخطاء التي أثاروها ضد محمد بمقارنتها بأخطاء التلمود، وأخطاء تاريخنا الكنسي، والأساطير البابوية أو الخرافات التي رويت عن آباء الكنيسة، أو تلك التي آمن بها المسيحيون السذج[3].

(1) Ibid. p.158.
(2) Ibid. p.159.
(3) Ibid. pp.162 - 164.

وتحدث صاحبنا عن البشارات بنبوة محمد في الأسفار اليهودية والمسيحية[1]، وانتقل إلى الحديث عن أركان الإسلام الخمسة وعقائده وآدابه وتشريعاته ونظمه وقدرها تقديرًا عميقًا عاليًا. وقد دافع بقوة عن حكمة التشريعات الإسلامية في تحريم الخمر والزنا والربا ولحم الخنزير وإباحة تعدد الزوجات مع العدل والحاجة، وفند مزاعم المسيحيين الأوروبيين وانتقاداتهم للإسلام في هذه المسائل.

لعل هذه الورقة قد استطاعت أن تقدم للقاريء الكريم صورة واضحة القسمات عن نقد الذات الاستشراقية، متمثلًا في محتوى هذا الكتاب، ذي القيمة العلمية والتاريخية الكبيرة، وأن تلفت – في الوقت نفسه – أذهان الباحثين والمهتمين بالقضية الاستشراقية إلى قراءته ودرسه بوصفه «وثيقة» في موضوعها ومنهجها وتاريخ تدوينها، طالما نسيت أو تنوسيت، والكثير في غفله من أمرها[2].

(1) Ibid. pp. 164 - 179.

(2) كنت قد تلقيت نهاية العام الماضي 2010م دعوة كريمة من اللورد المخضرم Robert's عضو مجلس العموم لزيارة بريطانيا والمشاركة في جلسة نقاشية بمبنى مجلس العموم البريطاني بين علماء الأديان السماوية المعنيين بالحوار، ثم ألقيت – بعد ذلك – محاضرة في كنيسة وستمنستر الملكية العريقة في لندن عن (علاقة المسلمين بأهل الكتاب كما يصورها القرآن الكريم والسنة المطهرة)، ثم ألقيت محاضرة في جامعة أكسفورد عن (منهجية المسلمين في فهم نصوص الوحي: القرآن والسنة) واستمعت إلى علماء اليهودية والمسيحية وهم يتحدثون عن نفس الموضوع، ثم ذهبت إلى جامعة كمبردج لمقابلة بعض علمائها وزيارة مكتبتها.. والمهم في هذا السياق أن صورة الدكتور هنري ستوب ابن هذه البلاد كانت قريبة مني وأنا أتجول في بلاده، وأحاضر وأناقش، وأتفق وأختلف مع مواطنيه، استلهم شجاعته وأستدعي نبالته، وأتساءل أحيانًا: هل دفع الرجل حياته ثمنًا لمواقفه؟!!